ريح التعصب الجنسي
تهب على أوربا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

مضى الآن أربعة أشهر على نشوب تلك الحرب البربرية التي تضرم إيطاليا نارها في الحبشة باسم الاستعمار والمدنية ؛ والحبشة ترد هجمات المعتدين عليها بشجاعة وجلد يثيران اعجاب العالم وعطفه ؛ والعدو المغير يتخبط في غمر فادحة من الصعاب والخيبة واليأس ، ويرتد شيئاً فشيئاً عن الأرض التي احتلها في البداية دون مقاومة ، وظن أن احتلالها مقدمة الظفر الشامل

وقد سنحت لايطاليا المعتدية أكثر من فرصة للفوز بقسط معقول من أسلاب الفريسة ، قبل أن تصطدم بأية مقاومة حقيقية ، وقبل أن ينكشف ضعفها وعجزها عن تحقيق أطماعها الفادحة بالقوة القاهرة ؛ ولكنها لم تحسن انتهاز الفرصة وذهبت بعيداً في غلوائها وتحديها ، ولم تحسن تقدير المقاومة السلبية الدولية التي استطاعت السياسة البريطانية أن تنظمها ضدها على يد عصبة الأمم ، والتي أملت تنظيمها على السياسة البريطانية بواعث حيوية خطيرة تتعلق بسلامة الامبراطورية وتأييد سيادتها في البحر الأبيض المتوسط ، وفي وادي النيل وشرق أفريقية ؛ بيد أن إيطاليا استطاعت بسياستها العنيفة وما تحمل في ثنيتها من احتمال اضرام نار حرب أوربية ، أن تحمل السياستين الفرنسية والبريطانية على وضع مشروع للصلح ، يقضي في الواقع على الحبشة بالاعدام كأمة مستقلة ، ويحقق لايطاليا السيادة الفعلية على معظم أراضيها ، ويتوج حملتها الاستعمارية بظفر شامل لم تستطع أن تنال منه شيئاً بالحرب ؛ ولكن المقاومة الحبشية كانت قد بدأت عندئذ تحدث أثرها في وقف الزحف الايطالي ، وظهر عجز إيطاليا وضعفها جلياً ، واستقبل العالم مشروع الصلح بالاستنكار والسخط ، ورفضته الحبشة بتاتاً ، فلم يلبث أن قضي عليه في مهده ؛ وكانت فضيحة دولية حقيقية أصابت هيبة السياسة البريطانية ، واضطرت أن تتراجع أمامها بسرعة وأن تعود إلى موقفها الأول

وقد عرضنا من قبل إلى ذلك التطور الدهش في سير الحرب الحبشية ، وأشرنا إلى بعض العوامل التي يظن أنها كانت سبباً في تحول السياسة البريطانية ؛ ومنها ما يقال من أن مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية استطاع أن يقنع السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية المستقيل بأن تعريض الحملة الايطالية للفشل ، وتمكن الأحباش من احراز نصر حاسم على البيض مما يعرض سيادة الدول الأوربية في أفريقية للخطر ، ويصدع من صرح أوربا الاستعماري كله ، ويبعث في الشعوب السوداء أو الملونة رغبة الانتقاض والمقاومة ، وذلك ليس من مصلحة بريطانيا التي تحكم مئات الملايين من الشعوب الملونة في أفريقية وآسيا

ومما يلاحظ أن هذه النغمة الجنسية تقوى وتشتد في أوربا يوماً عن يوم ، وأن الدوائر والصحف الاستعمارية أخذت تضرب عليها بطريقة منظمة ، وخصوصاً بعد الانتصارات المتوالية التي أحرزها الأحباش على الايطاليين في الأسابيع الأخيرة ، مما يدل على أنها قد أخذت تحدث أثرها في تكييف السياسة الاستعمارية الأوربية : بيد أنه مما يلاحظ أيضاً أن هذه النغمة التي بعثتها الحرب الحبشية من رقادها ليست سوى ناحية واحدة من نواحي الفورة الجنسية العامة التي اشتدت بوادرها في أوربا في الأعوام

ويختلق لها العلل الواهية المكذوبة ويبغضها كأنه هو الذي ابتلي بها وكأن المصيبة من قبلها لا من قبله ؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكرة فلم تعد إلا صوراً خيالية لا تعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشد الكره إذا شعر في نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها ، فهذا لا يكون رجلا لامرأته إلا في العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شفاء الغيظ ، وامرأته معه كالمعاهدة السياسية من طرف واحد .... لا قيمة ولا حرمة ؛ وإذا أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته وردّاً بامرأة على امرأة .....

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الأخيرة ، والتي ظهرت بصورة جلية في كثير من المناسبات السياسية والدولية

وقد نرجع إلى الوراء قرونا إذا حاولنا أن ندرس كل التطورات التي مرت بها تلك النزعة الجنسية الأوربية ؛ فتاريخ هذه النزعة هو تاريخ الصراع بين الشرق والغرب وبين الاسلام والنصرانية ؛ ولكننا نكتفي بأن نعرض إلى أحدث طور من أطوارها ، وهو الذي نرى اليوم آثاره ماثلة في سياسة أوربا العامة ، وفي السياسة المحلية لبعض الدول الأوربية . وفي وسعنا أن نقول إن هذا الطور الحديث من هذا الصراع الجنسي يرجع إلى الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ، فقد كانت الفكرة الجنسية تجثم قوية وراء هذا الصراع بين دولة أوربية عظمى وبين دولة آسيوية استطاعت أن تنفض عنها غبار الماضي بسرعة وأن تتبوأ مكانتها بين الدول القوية ؛ ومع أن أوربا كانت تسيء الظن بمقدرة روسيا القيصرية واستعدادها ، فانها لم تكن تتوقع أن تصاب الجيوش والأساطيل الروسية بمثل ما أصيبت به من الهزائم الساحقة ، وأن تحرز اليابان ما أحرزت من نصر باهر

ولكن اليابان خرجت من تلك الحرب ظافرة قوية ، وكان من نتائجها أن بسطت سيادتها على أقاليم شاسعة من الصين ؛ وحدث لأول مرة في التاريخ أن انتصرت دولة آسيوية على دولة أوربية عظمى ؛ ولهذا استقبلت أوربا انتصار اليابان في دهشة وروع ، واستقبلته مقرونا بصيحة الخطر الأصفر ؛ ولما سما شأن اليابان بعد الحرب الكبرى وضاعفت جهودها في سبيل التوسع الاستعماري في الصين ، وكشفت عن نيتها في مقاومة النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى ، مستترة بشعار الجامعة الاسيوية ، واستطاعت في الأعوام الأخيرة أن تبسط سيادتها تباعا على منشوريا وأقاليم أخرى من الصين ؛ زادت أوربا شعورا بما تسميه الخطر الاسيوي ، أو الخطر الأصفر إشارة إلى تفوق اليابان أو الجنس الأصفر ؛ وما ينذر به من تحطيم النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى ، والحلول مكان الدول الأوربية في استعمار الشعوب الاسيوية التي وقعت تحت سيادتها .

وهذه النعرة الجنسية تشتد اليوم في أوربا وتتخذ صورا محلية الى جانب صورتها العامة . ففي ألمانيا الهتلرية مثلا تتخذ نظريات الجنس والسلالة أهمية خاصة ، وترتب عليها مزاعم مدهشة ، ويبدو أثرها جليا في اضطهاد اليهود ومطاردتهم بأساليب عنيفة منظمة ، وفي الدعوة القوية الى بغض الأجناس السامية والشرقية واحتقارها واعتبارها أجناسا منحطة لا يليق أن تتبوأ مكانها مستقلة أو حرة ، ووجوب اخضاعها واستغلالها بواسطة الشعوب الآرية الأوربية ؛ ويزعم هتلر ودعاته أن الجنس الجرماني هو أشرف أجناس الخليقة ، وأعظمها في الخواص والخلال ، وينكرون على الشعوب السامية والشرقية بوجه عام أنها ساهمت أو تستطيع أن تساهم في إنشاء الحضارة ؛ بل يذهبون في غلوهم إلى اعتبار أن اليابان أمة مقلدة لا يصح أن توضع في مصاف الشعوب العظيمة المبتكرة ، الى غير ذلك من المزاعم التي تنم عن تعصب جنسي عميق ؛ ونرى مثل هذه النزعة الجنسية تعصف بأمم ثانوية مثل بولونيا والمجر ورومانيا ، وتتخذ صورتها في اضطهاد اليهود ومطاردتهم . أما الصورة العامة التي تتخذها النعرة الجنسية اليوم في أوربا ، فتظهر جليا في أمرين : الأول صيحة الخطر الأصفر ، وذلك لمناسبة توغل اليابان في الصين وتوجس الدول الأوربية من مطامع اليابان وخوفها من انهيار سيادتها الاستعمارية في الشرق الأقصى ، وقد أخذت تنهار فعلا بتخلي روسيا عن مصالحها القديمة في منشوريا ؛ والثاني في صيحة البيض والسود التي ذاعت لمناسبة الحرب الحبشية الايطالية ، وقصور إيطاليا في إدراك غايتها الاستعمارية بعد أن لبثت طويلا تنظم قواها وبعد أن جردت على الحبشة نحو ثلث مليون جندي مجهزين بأحدث الأسلحة والمخترعات الحديثة ؛ وهذه الصيحة تشتد اليوم في البيئات والدوائر الاستعمارية كلما اشتدت مقاومة الأحباش وزاد عجز إيطاليا وضوحا ، وبدا إزاء ما يحرزه الأحباش من انتصارات متوالية أن مغامرة إيطاليا الاستعمارية ستنتهي بالفشل الذريع . وهذه النغمة هي التي يضرب عليها اليوم غلاة الاستعماريين الذين يشدون بأزر إيطاليا تحقيقا لغايات السياسة القومية ، مثل مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية الذي يحاول أن يستبقي الصداقة الايطالية بأي الأثمان ويخشى أن يؤدي انتصار الأحباش أعني السود على الايطاليين الى كارثة استعمارية تهز الأمم السوداء والملونة الى الأعماق ، وتعصف بنير الاستعمار الأوربي

فى إفريقية ، ولفرنسا فى افريقيا الشمالية والغربية والوسطى امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ ومثل زعماء ألمانيا الهتلرية الذين يرون فى سياسة ايطاليا الاستعمارية ، وفى تحقيق غايات الاستعمار الايطالى سنداً جديداً لمطامع المانيا الاستعمارية فى استرداد بعض مستعمراتها القديمة تحقيقاً لنفس الغايات الاقتصادية التى يزعم موسوليني أنه يعمل لتحقيقها بالقضاء على حريات الحبشة واستقلالها

وهذه النعرة الجنسية حرية بأن تحدث أثرها فى السياسة الانكليزية ؛ فانكلترا كفرنسا تسيطر على أمبراطورية شاسعة من الشعوب الملونة ولا سيما فى شرق أفريقية حيث تضطرم الحرب الحبشية ، وسحق إيطاليا فى الحبشة يحدث بلا ريب أثراً عميقاً فى عقلية هذه الشعوب ويذكى فيها روح التمرد والمقاومة للغير الأجنبى ؛ ولكن الظاهر أن انكلترا مع تقديرها لهذا العامل ترى أن تضعه فى المحل الثانى بالنسبة لعوامل جوهرية أخرى تضطرها أن تعمل فى وجهة أخرى . ذلك أن انكلترا ترى فى العسكرية الفاشستية خطراً داهماً على سيادتها فى البحر الأبيض ، وترى فى ظفر إيطاليا باجتياح الحبشة خطراً داهماً على أملاكها فى شرق أفريقية وعلى سيادتها فى وادى النيل ؛ وترى على الجملة فى استمرار هذه الفاشستية الطامحة التجنية المشبعة بروح الاعتداء والتحدى ، خطراً على سلامة أمبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الأمبراطورية ، وخطراً على السلم الأوربى بوجه عام ؛ والمسألة الحبشية ثانوية فى نظر السياسة الانكليزية كما بينا أكثر من مرة ، ولكنها تغدو فى يد انكلترا وسيلة ناجعة لمحاربة الفاشستية وتقويض دعامتها العسكرية والسياسية

على أن الذى نريد أن نلفت النظر إليه هو أن هذه النعرة الجنسية التى تهب ريحها اليوم على أوربا وتروجها الدوائر الاستعمارية ، ليست جديدة ولا حادثة فى أوربا ، إنما هى نزعة أصيلة فى هذه الشعوب الأوربية التى استطاعت بأساليب العنف والغدر والخديعة أن تفرض سيادتها على معظم الأمم الافريقية والاسيوية ، والتى تحرص كل الحرص على استغلال هذه الأمم واستصفاء ثرواتها لكى تزيد بها فى قوتها وفى نعمائها ورخاء بنيها على حساب هذه الأمم المهيضة ؛ وأوربا اليوم هى كما كانت بالأمس ، وكما كانت منذ العصور الوسطى مهد التعصب الجنسى والدينى ؛ وليس من الضرورى أن نعود إلى أيام الحروب الصليبية لكى نصور أوربا المتعصبة على حقيقتها ، وإنما يكفى أن نذكر أن الاستعمار العسكرى والسياسى الذى تفرضه أوربا على الشعوب الشرقية باسم المدنية والتهذيب والتفوق الجنسى والثقافى والاجتماعى ، تؤيده فى نفس الوقت حملات البعثات التبشيرية وتعهد له بالعمل على تقويض العقائد الدينية الشرقية ؛ فاذا كنا نسمع فى أوربا اليوم صيحة الخطر الأصفر لمناسبة التقدم اليابانى فى الصين ؛ وصيحة البيض والسود لمناسبة انهيار مشروع إيطاليا الاستعمارى فى الحبشة ، فانما ذلك يتفق تمام الاتفاق مع ماضى أوربا وتقاليدها فى الاضطرام بنزعات التعصب الجنسى والدينى وخصوصاً كلما خشيت على صرحها الاستعمارى من الانهيار ما

(***)

كتاب

وحى القلم

أصبحت قيمة الاشتراك فى هذا الكتاب ثلاثين قرشاً غير أجرة البريد وهى لداخل القطر ثلاثة قروش

ومن أول فبراير لا يقبل الاشتراك البتة ، والثمن بعد الطبع أربعون قرشاً

والاشتراك بالقيمه الجديدة يرسل باسمنا إلى طنطا والمقيمون فى القاهرة يشتركون من إدارة الرسالة

مصطفى صادق الرافعى